محاضرات في اللغة والمجتمع لسنة 2024

موجهة للطلبة سنة أولى ماستر تخصص لسانيات تطبيقية

المحاضرة الأولى: اللغة عند: ابن جني، ادوارد سابير، تشومسكي

إعداد الأستاذة: سارة مسعوداني

إنّ عبارة اللغة الطبيعية، لا تقتصر على اللغات الحيَّة أو الميتة فقط، إنّها تتعدى هذا الاستعمال إلى نماذج مختلِفة من أنظمة الاتصال، كالرياضيات والمعلوميات مثلا، وهو أمرٌ يحتمل جِدالا عريضا، فكثيرا ما يَصنعُ علماء الحساب (الرياضيات) والمعلوميات أنظمةً مُرَمَّزةً لأغراض مُعيَّنة، ثم يُسمونَها لغة، رغم أنها أنظمةٌ صناعيّة وليست طبيعية، شأنُها شأنُ الشّيفرات التي بُنيتْ على لغات طبيعية موجودة ابتداءً، بل هناك أنظمةُ اتصالٍ أخرى طبيعية غير صناعية، إنسانية وغير إنسانية، لكنها ليست لغاتٍ بالمعنى الدقيق لِلفظة "اللغة"، ومن أمثلة ذلك (لغة الإشارة – لغة الجسد – لغة النحل ...)، إلا أن هناك شِبهَ إجماعٍ على أن استعمال كلمةِ "لغة" في هذا الباب، لا يعدو أن يكون مجازيًّا محضا. نُؤكدُ على حقيقةٍ هامة جدا وهي، أنه ليس بمقدورِ أحدٍ أن يتمتع بملكة اللغة الطبيعية عموما، إذا لم يكن ذا لغة طبيعية مُعينة (عربية، فرنسية، إنجليزية...

هناك العديد من التعريفات التي حاولتْ تقريبَ مفهوم اللغة وتفسيرَه وتبسيطَه مِن منظور لسانيّ، وسنركز في هذا المقال على أشهر التعريفات التي وضَعَها اللسانيون حول مفهوم اللغة.

اللغة عند ابن جني(ت: 392هـ):

لقد نشطت الأبحاث اللغوية في السنوات الأخيرة غير أنّ هذا النّشاط جعل يتخذ مسلكا قد يؤدي إلى غير ما ينبغي أن يؤدي إليه من تأصيل للمنهج العربي وتعميقه، مع أن العرب القدامى قد تناولوا اللغة بطريقة لا تبتعد كثيرا عما يقرره الدرس العلمي الحديث، وابن جني واحد من علمائنا الأجلاء وباحث لغوي أسس الفكر اللغوي وحدد معالمه وأخرج للناس من عصارة

عقله الفذ ما أرى العقول وأثلج الصدور، فكشف عن سحر العربية، وأجهر بأسرارها وبرهن على جمالها وقدم صورا رائعة عن حقائقها وفنوا.

سجل القرن الرابع هجري الإرهاصات الأولى للتعامل مع المسألة اللغوية بشكل من الموضوعية والمنطقية، والغالب أن ابن جني هو أول من أعطى تعريفا للغة وكان ذلك في كتابه "الخصائص"، فلم يتطرق كل من ابن فارس والثعالبي في كتابهما عن "فقه اللغة" إلى تعريف اللغة، فتعريفه لها أثار دهشة الباحثين البعيدين عن تطور الحياة العلمية العربية، فهو يتطابق مع تعريفات المحدثين، وكذلك فإنه يشتمل على معظم جوانب التعريف التي عرضها" علم اللغة " في العصر الحديث، فكيف عبرت الفلسفة اللغوية العربية عن مرحلة ناضجة من مراحل الدراسات اللغوية؟ وكيف جسد ابن جني هذا النضج؟

تعريف ابن جني للغة:

يقول أبو الفتح في كتابه "الخصائص" في باب القول على اللغة وما هي «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، يتضمن هذا التعريف أربع جوانب هي:

1_ .المادة الصوتية تتمثل في كون اللغة أصوات.

2_ تعبير لغوي يبرز أن اللغة تعبير.

3_.ظاهرة اجتماعية باعتبار تعبير يعبر به كل قوم عن أغراضهم.

4_ تمام البيان والدلالة باعتبار تعبر عن أغراضهم.

لقد نال تعريف ابن جني للغة شهرة واسعة في كتب اللغة الحديثة، وفيه يقول الدكتور فهمي حجازي: «وهذا التعريف دقيق ويتفق في جوهره مع عناصر تعريف اللغة عند الباحثين المعاصرين فهو يؤكد- من جانب- الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية، ويبين أيضا أنّ وظيفتها الاجتماعية هي التّعبير ونقل الأفكار في إطار البيئة اللّغويّة، ويذكر كذلك أنّها تؤدي وظيفتها في مجتمع بعينه، فلكل قوم لغتهم، وذلك أنّ اعتبار اللغة أصوات لم يشهد إلّا في العصر الحديث، فالباحثون أجمعوا على أنّ اللّغة "أصوات"، والجدير بالذكر **هو إخراج ابن جني**

"**الكتابة**" **وقصر اللغة على الأصوات**، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أن علماء العربية لم يدرسوا اللّغة العربية باعتبارها **مكتوبة** شأن علماء "**فقه اللغة**" وإنّما درسوها باعتبارها لغة "**منطوقة**" قائمة على "**الأصوات**" شأن أصحاب "**علم اللغة.**"

⬅لا تبتعد معالجة اللغويين المحدثين لهذا الجانب من تعريف اللغة عن معالجة ابن جني لها، باعتبارها "أصواتا"، لأن اللغة سواء كانت "نظاما من الرموز الصوتية" أو "نظاما من العلامات الصوتية"–كما وردت في دائرة المعارف البريطانية– أو جزءا من العلامات "السيميولوجية" –كما يراها دو سوسير– فإنّها تُدرس باعتبارها حروفا –مكتوبة.–

⬅أمّا الجانب الثاني الذي تضمه تعريف ابن جني للغة، فهو الذي يشير إلى وظيفة اللغة، "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، أي الوظيفة التعبيرية للغة، «تختلف اتجاهات اللغويين المحدثين بين كلمتين يطلقونها على وظيفة اللغة، وهما "التوصيل" و "التعبير"، والكلمة الغالبة في كتب اللّغويّين هي أن "اللغة هي التوصيل داخل المجتمع"، بل إنّ الماركسيين يقصرون وظيفة اللغة على "الاتصال"على النحو الذي قرره لينين، من أنّ اللغة هي أهم وسيلة في الاتصال بالإضافة إلى هذا الاتجاه ظهر اتجاه آخر يرفض قصر اللغة على وظيفة التعبير أو الاتصال فيقول أصحاب هذا الاتجاه: «هل اعتبار اللغة وسيلة من وسائل توصيل يجوز أن يعد تعريفا صادقا للغة؟ إنّ دراسة الأنواع المختلفة "للوظائف الكلامية" في لغة من اللغات الحية لا تؤيد أمثال هذه التعريفات ولا توحي بها»، ويقدم السعران أمثلة تبين أن الوظيفة الأساسية للغة ليست التوصيل أو التعبير من خلال طرحها للأمثلة التالية:

–القراءة المنفردة بصوت عال أو تدوين ملاحظات لا يريد الكاتبا إلّا نفسه، أو محادثة الإنسان لنفسه، ليس فيه أي نوع من التوصيل.

–استعمال اللغة في السلوك الاجتماعي خاصة الجانب الديني، كالدعاء والصلاة

2. تعريف سابير: E. Sapir 1921

يقول إدوارد سابير

Language is purely human and non-instinctive method of communicating ideas, emotions and desires by means of voluntarily produced symbols.

يرى اللّساني الأمريكي المعاصر "إدوارد سابير" أنّ اللّغة: "وسيلةٌ إنسانية خالصة وغير غريزية، لتوصيلِ الأفكار والانفعالات والرغبات، بواسطة رُموز تَصْدُرُ اختياريا"، وفي هذا التعريف عيوبٌ كثيرةٌ منها، أنّنا مهما توَسعنا في معاني (أفكار، انفعال، رغبة)، فإنّ هناك كثيرا من الأنظمة التي تتكون من رموزٍ تَصْدُرُ اختياريا، ولا نَعدُّها لغاتٍ إلا فيما نشعر أنه تَوَسُّعٌ في معنى كلمة "لغة"، أو أنّه استعمالٌ مجازيٌّ لها، فقد يتماشى ما يُعرف اليوم بلغة الجسد مع هذه النقطة في تعريف "سابير" مثلا، غير أننا نَشُكُّ أيضا في صحة الدعوى بأن ما يَصِحّ تسميتُه بِلغاتٍ، هو أيضا خاصية إنسانية وغير غريزية في آن معا.

وفي هذا التعريف نص صريح على الاتصال بوصفه الهدف الذي يتوخاه المرء من استخدام اللغة، فاللغة عند سابير إنسانية خالصة، وليست غريزية، تستهدف توصيل الأفكار والمشاعر والرغبات من خلال نظام من الرموز يختاره المجتمع.

اللغة عند نعوم تشومسكي N. Chomsky 1957.

Language is a set (finite or infinite) of sentences, each finite in length and constructed out of a finite set of elements.

يُعرف اللساني الأمريكي الشهير "نعوم تشومسكي "من خلال كتابه " البنية التركيبية" وهو الكتاب الذي دشّنَ حركة النحو التحويلي. يقول التعريف "**سأنظر إلى اللغة بدأ مِن الآن على أنها مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجُمل، كلٌّ منها مُتناهٍ في الطول، ومكونةٍ مِن**

مجموعة من العناصر المتناهية)، الواضح أنّ هذا التعريف يَعزف نغمة مختلفة جدا، فقد قُصد به أنْ يَشمل أشياءَ كثيرة إلى جانب اللّغة الطبيعية، وذلك خلافا للتّعريفات الأخرى، فاللغات الطبيعية كلُها وِفْقا لتشومسكي في هذا التّعريف، سواءً في أشكالِها المنطوقة أو المكتوبة "لغات"، وذلك لما يلي:

- إن في كل لغة طبيعية عددا متناهيا مِن الأصوات، وعددا متناهيا من الحروف في أبجدياتها، هذا على افتراض أنّ لها نظاما أبجديا للكتابة.
- إن مِن الممكن أن يُنظر إلى أية جُملة في اللغة، على أنها سلسلة مُتناهية من هذه الأصوات أو الحروف، وذلك على الرغم من احتمال وجود عدد غير متناه من الجُمل المتمايزة في اللغة.

وتشومسكي كما هو معروف صاحب النظرية التوليدية التحويلية في النحو، واللغة في رأيه هنا فئة، أو مجموعة من الجمل المحدودة، أو غير المحدودة، ويمكن بناؤها من مجموعة محددة من العناصر، هذه العناصر المحدودة، يذكر تشومسكي أنّها تساعد على الإبداع غير المحدود بواسطتها، فإذا كانت الأنماط اللغوية يمكن حصرها مثل : (فعل + فاعل + مفعول به) فالجمل التي يمكن أن توضع في هذه الأنماط لا يمكن حصرها، أنّها لا محدودة.

ولئن كان مصطلح الاتصال قد غاب عن هذا التعريف، إلّا أنّ نظرية تشومسكي الكاملة كانت الأساس الكبير للمدخل الاتصالي، وكما تذكر الأدبيات فإنّ مصطلح الكفاية الاتصالية صاغه هيمز Hymes ليقابل به مفهوم الكفاية عند تشومسكي.

إن تعريف تشومسكي "للغة" لا يقصد به الوظيفة الابلاغية للغات، سواء أكانت طبيعية أو غير طبيعية، كما أنّه لا يتعرض للطبيعة الرمزية للعناصر، فغرضُه من هذا التعريف، هو إبراز الخصائص التركيبية البحتة للغة، والإيحاء بإمكانية دراسة هذه الخصائص من زاوية رياضية دقيقة، ويَعتمد تشومسكي على ما يُسميه بالبنية؛ أي (القوانين التي تُرَكِّب الجُمل في

اللغات الطبيعية)، ولهذه القوانينِ مساهمة كبيرة في عِلم اللسانيات، بالإضافة إلى صياغتِه نظريةً عامةً للغة، تعتمدُ على تعريفٍ خاص لهذه الميزة.

تبقى مُهمة عالم اللسانيات، حين يَصف لغة طبيعية معينة، أن يَتبيَّن ما يمكن أن يكون جُملا، مِمّا لا يمكن أن يكون، في هذه السلسلة المتناهية من العناصر. كما أن مُهمة عالِم اللسانيات المُنَظِّر أن يكتشف إذا استطاع، ما قد يوجد من الخصائص التركيبية التي تختلف بها اللغات الطبيعية عن غيرها مما يُسمى باللغات غير الطبيعية. يتخطى تشومسكي الاعتقاد بأنّ مثل هذه الخصائص التركيبية موجودة بالفعل، ويؤكد على أن هذه الخصائص مُغرقة في التجريد، ومغرقة في التعقيد، وأنها مُحددة بالغرَض الذي جُعلت له، مما يجعلُ تعلمَ الطفلِ لها مِن العَدَم أثناء مغالبتِه اكتساب لغةِ قومهِ أمراً مستحيلاً. فلا بد أن تكون تلك الخصائص معروفة للطفل بصورة مُعينة، وبشكل مستقل عن تجربتِه مع أية لغة طبيعية.

قراءة حول التعريفات التي أوردناها

لقد أفادتنا التعريفات الثلاثة التي أوردناها باختصار، في تقديم بعض الخصائص التي يَعدُّها بعض اللسانيين، مميزاتٍ رئيسية للّغات. فبعضُهم يرى أن اللغات أنظمة مِن الرموز، صِيغتْ لغرضِ الإعلام، وعلى هذا المنوال سننظر إلى اللغة نحن كذلك، أي باعتبار وجهة نظر "الإشاريين". إنّ ما نروم إليه بالضبط، هو البحثُ في إمكانية وجود خاصية بسيطة، أو مجموعةٍ من الخصائص التي تُفرق اللغات الطبيعية عن الأنظمة الإشارية الأخرى (اللغات الصناعية). لقد ذكرنا فيما تقدم، بعضَ تلك الخصائص مثل (العشوائية، المرونة، قابلية التعديل، الحرية من تحَكُّم المثير، الاعتماد على البنية.

إن "النّظام اللّغوي" ظاهرةٌ اجتماعية أو كيان مجرد تماما، أي أنّه ليس له وجود محسوس، ولكنه يتمثل أحيانا في السّلوك اللّغوي لأفراد الجماعات اللّغويّة، ويمكن أن يطابق هذا، ما يُسميه تشومسكي بـ"المعرفة اللّغويّة" إلى حد ما، لا النّظام اللّغوي نفسَه، بل معرفةُ المتكلِّمِ النموذجي بذلك النّظام، أما دو سوسير فيؤكد تأكيدا خاصا على الصفة الاجتماعية أو الكيانية للأنظمة اللغوية، لذلك يرى أن اللسانيات أقربُ ما تكون إلى عِلم الاجتماع وعلم النفس

الاجتماعي منها إلى عِلم النفس الإدراكي، وقد أخذ كثيرٌ مِن اللسانيين بهذا التوجُّه، وهناك من اللسانيين من يرى أن الأنظمة اللغوية، يمكن أن تُدرس بشكل مستقل عن علاقاتها النفسية والاجتماعية، إننا نعني حين نقول (إن اللساني يهتم باللغة)، أنّه يَهتمُّ بصورةٍ رئيسيةٍ بتركيب الأنظمة اللغوي

1. 2. اللغة وتمثّل العالم – "نظرية سابير / وورف"

وفقاً لنظرية "سابير / وورف"، تعكس كل لغةٍ رؤيةً مُحددة للعالم، وهي رؤية خاصة بها. ففي نظر هذين العالِمين تنظِّم لغةُ أيّ مجتمعٍ كان ثقافته الخاصة به، أي أنها تنظم كيف يقوم أفراده بإدراك الواقع وكيف يتصوّرون العالم. وبالتالي، يرى "سابير" و"وورف" أنَّ الفروق بين لغتين تؤدي إلى نمطين مختلفين من البِنيات الفكرية والانفعالية على حدٍّ سواء. بين لغتَيْن معيَّنتَيْن هنالك إذن عالمان مختلفان، وليس عالماً واحداً تتمّ تسميته بمجموعتين مختلفتين من الكلمات والتعابير[1].

[1]. انظر تعريف "فرضية وورف-سابير" في المعجم التالي :
Jean Dubois et alii, *Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du langage*, Paris, Larousse, 1999, sous « Whorf-Sapir (hypothèse de) », p. 511)